

في معنى الشخصية (١)

تلخيص

عسرى المرسى غنيم

أولاً - مدخل :

إذا استعرضنا تاريخ الفكر العلمى ألفينا التصورات الروحانية هيمنت زماناً على نظرة الإنسان للطبيعة ، فاتسحت الظواهر البيولوجية والسلوكية بوشاح ميثافيزيقي ، وابتدأ هجوم الموضوعية العلمية بالتقاطها معانينا المنصبة على العالم الفيزيقي ، وتلاها خطوات فى المجال البيولوجى ، وليس الأمد ببعيد على نهوض علم الشخصية الإنسانية الذى كان طليعته فكرة عقيمة هى النظرية المزاجية ، ثم تبعها تصورات حول البنية والغريزة ، إلى أن بزغ الآن نظام بمناهجه وفروضه .

إن أول من هز الشخصية هو الطب النفسانى فى محاولاته تفهم وشفاء أفراد اعوجت شخصياتهم ، بيد أن أول نظرية ديناميكية هى التحليل النفسانى ، وكان فتح « فرويد » أن ضم فى صيغة عامة عدداً نميراً من ظواهر متشعبة . فزلات اللسان ، وخطل التأويل ، واللعب والأحلام والطقوس الدينية ، والأعراض العصائية والانحرافات الجنسية وغيرها فسرها جميعاً كإفصاحات وإفراجات - تتباين فى مدى تحجبها - عن حاجات يحفل الفرد عن إفصاحها وإرضائها بطريق لا عوج فيه .

نقول مبدئياً إنه يشق علينا إمداد تصور ديناميكى حيوى عن الشخصية ، وذلك لأن العمليات التكاملية المقومة لها مستورة محجبة ، وليس لدينا آلات حاسمة لإماطة لثامها ، ومن ثم فصورها لزام أن يستدل عليها من مجالها .

Henry A. Murray & Clyde Kluckhohn

(١) تلخيص مقال :

"Outline of a conception of Personality"

وعنوانه :

Personality in Nature, Society & Culture

وهو الفصل الاول من كتابهما وعنوانه :

كذلك التابع السريع لأوجه النشاط ، والحركات ، وغيرها ، تلك التى تبدى ثم تتلاشى ، يصعب إعادة قالبها فى صورته الحقة ، وهذا أمر يضاف إلى سابقه فى تفقد تصور الشخصية تلك العملية الدائمة التى لا تتعثر ولا تتوقف للمختبر . ولو عرفنا أن الشخصية يحفزها شبكة معقدة من القوى ، بعضها لا شعورى ، ومعظمها تمتد جذوره إلى خبرات انفعالية فى الطفولة الأولى ، فربما ينجلى عسر هذا التصور . فهذه القوى ليست سافرة ، بل تفعل فى الزمان ، وبالتالي لزم الإخصائى أن يمد انتظاره أمداً مديداً لملاحظة آثارها المترجمة عن فاعليتها .

ومن الجهة الأخرى نرى أن التصور الحيوى يستلزم النظر إلى الشخصية « ككل لا ينقسم » اللازم بدوره لتغير مكوناتها جميعاً ، والذى نقصده به : الوحدة الناجمة من تنظيم فعال للعمليات السيكولوجية خلال حدث من الأحداث ، والوحدة البازغة من الترقيات المتلاحقة عبر سلسلة ممتدة من أحداث ، أو خلال الحياة كلها ، أى أن الشخصية تسفر عن درجة ما من الوحدة فى كل عملية من عملياتها الوظيفية ، كما أنها تظهر درجة ما الوحدة فى تقدماتها نحو أهداف مرسومة . ولا يتم هذا بسهولة ، إذ مجرى الحياة زاخر بألوان متصارعة من تصورات وأهداف وفلسفات ، وبالتالي فطبيعة الشخصية تبدى فى احتدامها كما فى كليتها مع مراعاة أن الزمان هنا أيضاً عنصر له وزنه .

ولا يقل صعوبة عن هذا ، أى تصور الشخصية كوحدة زمانية تترقى ديناميكياً ، النظر إليها كإطار كلى لعناصر بالقوة فى آونة معينة ، إذ يستلزم هذا الأخير تصوراً تخطيطياً للعناصر المؤسسة ولمنابع الطاقة ، والأنظمة الفعلية ، وليس هذا أمراً ميسوراً . وإلى جانب هذه جميعاً ، نرى أن دارسى الشخصية والثقافة فريسة شخصياتهم أنفسهم ونتاج ثقافتهم ، وهذا أمر ذو بال .

الحق أن أى تصور عن الشخصية هو « صيغة فرضية » لا سجل حقائق ، فأنواع النشاط الذاتية والموضوعية فيها تتلاحق دواماً طوال أربع وعشرين ساعة فى اليوم الواحد ومن المهد إلى اللحد ، فإذا أمكن ملاحظتها جميعاً ، فؤداها لا يمكن إحكامه عقلياً ، وليس ضرورياً ، وبالتالي نرسم « صيغة كافية » لا « صيغة كاملة » أى لتفسير الأحداث السالفة والحاضرة ، وللتكهن بالأحداث المستقبلية ، ثم أخيراً لتقوم كدعامة لانتخاب التدابير الفعالة للتحكم .

ثانياً - الشخصية تنظيم زماني لعمليات الدماغ :

تعتمد كل المجالى العضية واللفظية في الشخصية على حالة أجزاء مختلفة من الدماغ والمواقع العصبية بينها والأوعية الدموية فيه ، ثم على الدم ذاته ، على أن الدماغ بدوره تؤثر فيه باقى مكونات الشخصية ، كالغدد الصماء والكم الأوكسجينى الناجم من عمليتى الشهيق والزفير ، وبرغم هذا فللدماغ سبق ، إذ يحدث فيه « التنظيم » الذى هو الكيفية البارزة في الشخصية . فالضرر الذى يلحق إنساناً مثلاً في منطقة منه (كمرکز الكلام) قد يشل قدرته في اتصالاته الاجتماعية ، ويتر موضع معينة (كالفص الجبهى مثلاً) يمكن أن يقلل الاهتمام الذاتى ، والانهاط والكف ، كما أن عدوى الدماغ (كالزهرى) تؤدي إلى تغيرات ملحوظة في الحالة والفكر . ثم إن تقلص الأوعية الدموية فيه قد يؤدي إلى الخبل ، كما أن التغيرات الحادثة في الدم (كتنقصان تهويته) يعضدها بعض المخدرات (كالمشروبات الروحية) تنتج تحولات عميقة في الحديث والسلوك .

وإذا ما كانت الشخصية تنظيماً واقعياً مشخفاً للعمليات السيكولوجية ، فيلزم إذن أن يكون « محلها الطبيعى خلال مجال فيه معية هذه العمليات جميعاً ، أو معية تصوراتها قاطبة » ، وإذا كنا قد اصطفينا حد « الشخصية » لنندل على وظيفة الفرد « ككل » لا على وظيفة هذا « العضو الثانوى » الجسمى أو ذاك ، فإن العمليات التكاملية اللازم الاهتمام بها بوجه خاص ، إنما هي تلك العمليات الحادثة طى أعلى مستوى للتحكم وهو « الدماغ » إذ هو مقر الحكم الجسمى ، بما أنه المكان الفريد الذى فيه تختم مطافها العمليات الموردة (أى الحسية) من الجسم كله ، والذى منه تنبع العمليات المصدرة (أى الحركية) إلى الجسم كله . كما أنه الركن الذى تتفاضل وتتكامل فيه الإحساسات لتشكيل الأنماط الجملالية والادراكات الموضوعية وغيرها ، كذلك الحال في الأفكار والخطط المتبدية كسلسلة من أنماط فعلية مرتبطة ديناميكياً . كما أنه مقوم الأحداث البيئية في صورتها الواقعية . إن الدماغ ، باختصار ، نقطة الشعور ، ومركز التفكير ، ومرجل الصراعات والعزم عليها ، وبؤرة الخيرات جميعاً ، والحقائق ، والقيم والمعاني العامة ، والتطلعات والأحكام وهلم

جرأ . وعلى هذا الأساس وحده يمكننا تقرير أن الشخصية هي « تنظيم العمليات المتكاملة المتسلطة في الدماغ » .

وإذا ما تكلمنا عن تنظيم نشاطى ، فإنما نعنى دائماً أنماطاً زمانية قد يكون بعضها متوافقاً ، كالموسيقى ، إن أردنا مثلاً ، فأنغامها المتوافقة هي الأنماط المتوافقة ، وإيقاعها هو الأنماط الزمانية . والزمان عنصر تكاملى لكل نمط من عمليات ، ولكل عملية خاصة في كل نمط . وبالتالي « فالديمومة » تنبثق عبر كل ما يعالجه العالم النفسانى . فما هي ديمومة الشخصية ؟ إذا ما كان نبض العمليات اللحائية يواصل ضرباته دوماً طوال أجل الكائن ، فالشخصية إذن — ككل تاريخى — لزام تحديدها بأنها « الحاصل الكلى للعمليات التنظيمية المتسلطة في الدماغ من المهد إلى اللحد » . نرجع البصر كرة أخرى للموسيقى ، فقوام الإيقاع والاتساق هو البنية الكلية (أى الصلات المتوافقة والزمانية) لأنغام نغمة من بدء هز الأوتار إلى مغادرة الكمان . ولما كنا عاطلين من معرفة مجال القوى الكهربائية المكونة للناحية الفيزيقية من مجرى الشعور فإن أنجع مصطلحات فنية لتصور كل نمط من العمليات السائدة هي المستمدة من « الاستبطان » كالإدراك والانفعال والتقويم ، والحاجة والتزوع وغيرها .

إن جل الأحداث الخطيرة المنصبة فيها العمليات التكاملية هي مصاكات بيئية ، ومن ثم فمجال الشخصية يضم « البيئة الكلية للفرد ومضمونه الاجتماعى والفيزيقي » . وإن كنا بدأنا باللفت إلى المجال الدماغى ، فلهذا أسبابه وهي أن كيفيات السلوك الصريحة هي مجالى قائمة في حومة الدماغ ، وإذا ما أملنا فهم ديناميات السلوك ، فبالتالى يلزم محاولة إدراك العقبات أو التغير الهيمى المتسلط ، والذي يؤدي بدوره إلى تعليل ميزة السلوك الملاحظ . وجلاء ذلك هو أنه بما أن الشخصية « تنظيم » وجب تصورهما مؤلفة من عمليات فاعلة سويًا في مجال واحد معين . فدارس الشخصية لزام عليه أن يضع نصب عينيه بنية الجسم ، ويفطن إلى التابع الزمانى فيه ، ويراعى الظواهر الجوهرية للتوصيل العصبى والتغير الأيونى والتأكسد ، والممكنات الكهربائية والهرمونية فى الأنسجة والأغشية ، ولا غبار إذا ترك الأس النبائى والفسىولوجى والزمانى فى السلوك ، للمشرح والفسىولوجى والكيمائى الحيوى ، فاللب إذن ، المجال الدماغى القائم فيه تنظيم الشخصية ، ولا يصح قطعاً تصور الفرد كمجموعة سمات بارزة ،

وإلا تقوضت أسس فكرة الشخصية ، فإذا ما اتفق أن صفات قد التقطت من تيار العمليات المتدفق ، فإنه يستحيل جمع شتاتها تارة أخرى لتصل لنا نموذجاً من أنظمة ديناميكية ملتزمة مؤلفة لكيان شخصي . فالشخصية تناسق وهندسة هذه جميعاً ، لا مجرد « قائمة » من صفات تخطيطية .

وإن كثيراً من علماء النفس الأميركيين اليوم ، بتأثير فلاح العلوم الفيزيائية ، والتصورات الآلية الميكانيكية ، وقضية السلوكية المتحجرة ، قد انساقوا إلى التغاضي عن العمليات الذاتية . ومن ثم حادوا عن الوضع المسدد ، فليس هناك ، مثلاً ، منفذ لتصور التعلم ، أي اكتساب وحفظ حقائق وتصورها ، وتصور الأنماط الجمالية وغير ذلك ، دون التوجه إلى الدماغ وحفظه لهذه الآثار الناجمة عن نشاط متسلط . وهذه علة ثانية مضافة لأولى يبرران ابتداء نبالعمليات الشعورية واللاشعورية القائمة في « مركز » الشخصية أي الدماغ .

ومن الناجع أن نميز الشخصية ، بعملياتها المتكاملة ، ودعامات معرفتها من نظريات وعواطف وحاجيات ، ومآرب وخطط - تميزها بكل أولئك عن الأعضاء الجسمية الأخرى ، وعن هذا الطريق يمكننا دراسة التفاعلات المتبادلة بين المجالين . وأن معضلات السياسة الذاتية والحرية والإرادة ، قد اشتط من حدها بأنها مشكلات « سيكوسوماتية » ، بل هي ، كما نرى ، ذات علاقات تحكمية تسلطية أو ما دون ذلك ، أي أنها تتكئ على سيادة وتوافق العمليات الموجهة في أرفع مستوى تكاملي ، وينجذب الإشكال إذا ما دهمها تنبيهات غير مقررة (كالاندفعات والانفعالات مثلاً) ، وهذا سبب ثالث يضاف إلى سابقه .

ثالثاً - وظائف الشخصية :

(١) خفض التوتر :

إذا ما تساءلنا عن طبيعة العمليات المتكاملة السالفة ، أو بتعبير تقليدي ، عن وظائف الدماغ ، أجابنا الفسيولوجيون بأن كل الأحداث الجسمية إنما هي تقريباً أحداث وظيفية ، بمعنى أنها تساعد على ترقى وتوالد وإعالة الكائن

الحى ، بيد أن أغلب السيكلوجيين ، خلافاً للفيولوجين ، يحترزون من معنى الوظيفة هذا ، وذلك لأن كثيراً من العمليات السائدة التى يدرسها السيكلوجى ، إذا حكم عليها بآثارها الواقعية لأضحت غير وظيفية بالمعنى التقليدى ، أو قد تدفع نحو الألم أو تزعج نحو الانتحار . الحق أن الدماغ يقوم بوظيفته فى بيئة معقدة جد التعقد ، متبدلة دواماً ، وقلماً يؤدى الدماغ مهمته بنهج تام البهجة للكائن اللهم إلا إذا استثنينا بعض المواقف المتواترة ... ولما كانت أعضاء الجسم الأخرى تقوم بوظائفها البسيطة نسبياً ، فعليه يجد الفيولوجى عملياته متقمصبة طابعاً نفعياً ، بيد أن المجال الدماغى أكثر تعقداً ، إذ يلزمه تعلم كيف يتده طرائق جدداً يقرها المجتمع ، ليعالج بها مواقف جدداً ، أو يخفض ولوع الفرد نحو السلطان وغير ذلك ، مما يقصر دونه الدماغ ، ولكن هذا لا يحل المعضلة السيكلوجية ، إذ فكرة « سوء القيام بالوظيفة » دعامتها تحديد شديد للوظيفة وهذا بدوره يعتمد على صيغة « حال مرغوبة » أى على صيغة نمط زمانى للحالات التى تميل العمليات إلى الانحدار فى مجراها .

ولم يصل علماء النفس بعد إلى تصور مقبول عن الحال المرغوبة هذه ، وأن القضية الأرسطوطالية المقررة أن هدف الحياة الفريد هو السعادة العقلية ، تصريح مكين لم ينقضه نقد ، ولكن لم يجازف للآن عالم فى أن يشرع فى تأسيس « سيكلوجيا السعادة » . وفى المركز الذى تتبواه السعادة ، أو على الأصح الرضى الدائم ، وضع السيكلوجيون عدداً من المعانى مثل : « خفض التوتر » غير أن تقدير الرضى أمر تحفه الصعوبة ، ولفك هذا الاشكال ، بطريقة موضوعية ، بحث علماء نفس الحيوان بعض الحقائق الجسمية (مثل تضاول النشاط بعد الاطعام أو الجماع) ، ويمكن قبول هذا على أنه تعلق ثابت للرضى أو لخفض التوتر ، وقد أسفر هذا البحث عن ملاءمته وقد يمتد يوماً للكائنات الإنسانية ، ولكننا نقول إن دعوة وجود « حال مرغوبة » أى نمط أحوال يمكن قياسها دون الاستعانة بالتقريرات الذاتيه ، دعوة عريضة صعب علينا الإيمان بها .

وينحى السيكلوجيون معنى الوظيفة أيضاً ، لأنه معنى « غائى » وبالتالي يحى العلل الغائية والسبح الميتافيزيقى ، ولعل أقرب شىء يفلت من هذه

جميعاً ، والذي برغم مشقة قياسه يقبله كثير من العلماء هو معنى : الحاجة ، أو الحافز ، أو القوة التوجيهية ، فهو يتجنب العلل الغائية لأنه يشير إلى حال وجودى للتوتر أى قلق قهرى وتبرم ، يسرى هذا التوتر فى الكائن ويكون طليعة الحال ، وهذا دفع « آنى » أكثر منه سحب « استقبالى » بمعنى أن الكائن المتوتر أو اللامتزن ، إذا ما جابه الموقف الجديد ، يميل إلى التقدم بوساطة محاولات وتمييزات تخيلية أو صريحة ، وبعد الجهد والكد ، قد يصل الكائن فى النهاية ، عن طريق الذكاء أو مجرد الصدفة ، إلى هدف من شأنه إعادة تأسيس التوازن تارة أخرى (أى أنه يخفض التوتر ويسكن من الحاجة) ، ويزامل خفض التوتر إحساس الرضى ، وبعد تجربة أو أكثر من هذا النوع فإن الموضوع (سواء كان شخصاً أو شيئاً) أو نوع الموضوع الذى ارتبط ارتباطاً ديناميكياً بالرضى ، يصير نفسياً ذا قيمة أى «موضوع الهدف» ثم إن موضع الموضوع تلحقه قيمة « كما كان الهدف » ، وإلى جانب ذلك فإن أنماط العقل الفاشلة ، بالتكرار ، تتجه صوب التضاؤل والإمحاء ، بينما الأنماط الناجحة ، بما فيها من وسائل فعالة شخصية أو شيئية ، تتجه نحو التجسم والنبات . وعلى هذا النهج ، فإن تكامل الحاجة البسيط هذا (أى مركب الحاجة والهدف وموضوعاته وأمكنته وأنماط فعلية مختلفة ووسائل فعالة) يترقى ، ثم إن كان مدركاً حسياً أو صورة ذهنية لموضوع الهدف يوقظ الحاجة وبالتالي يبرز النشاط . ويمكن تطبيق هذا المنوال على كثير من الحاجات السيكلوجية المكنونة بالقوة فى الناس أجمعين ، ولكنها تترقى فقط إذا ما خبرت أنواع الرضى .

ويبدو أننا بلغنا إلى صيغة عامة يمكن تطبيقها على الحاجات جميعاً وهى :

التوتر ← خفض التوتر ، وتكون وظيفة العمليات السيكلوجية ، هى تسكين دورى لحاجات متباينة ، أو بمعنى أوسع ، هى الخفض المبهج لتوترات قائمة . وفى هذا المعنى تكون نقطة الرجوع هى الحال الأولية ، أى التوتر المقلق ، لا الحال المرغوبة ، أى إرضاء الخفض ، ويمكننا بهذا أن نفسر الانتحار وغيره مما ينافى الحياة ، فالانتحار له قيمة توافقية ، هو وظيفى لأنه ينسخ توتراً أليماً .

فى طوع المرء أن يخبرنا ، فى أى لحظة ، عما يقوم به ، أو عما يحاول أن يقوم به ، أو عما يعتزم أن يقوم به ، ولو انه غالباً لا يعرف تماماً الحاجة الحافزة لعزمه إذ تتفاعل دواماً دوامة الحاجات ، وبالتالي يصعب ، سواء عن

طريق الاستخبار أو الملاحظة ، تحديد أى الحاجات هي الفاعلة في آونة معينة ، تحديداً واضحاً . ولهذا عينه ، يحسن استخدام الحد « نزوع » للدلالة على كل جهد ملح على نوال هدف نوعى خاص ، مع مراعاة أن ألوان النزوع ، إذ قد تكون سلسلة ، تستمد حيويتها من حاجة ، ومن ثم نقول إن عامل الحفز العام إنما هو « توتر الحاجة » ولكن عامل التكامل الرئيسى هو « النزوع » الموجه لتنظيم الأنماط العضلى واللفظى ، شطر هدف معين .

وإن درجة الرضى تتناسب طردياً مع كمية التوتر المنخفضة في الوحدة الزمنية ، فكلما ازداد الإنسان جوعاً ، ازداد تمتعه بوجبه ، وأن الحالة اللاتوتورية هي ، في بعض الأحيان ، مثال لأولئك الذين يعانون من ذحل متأصل ، أو حافز جنسى أحبط ، بيد أنه ، كقاعدة انعدام أو بالحري غياب « توتر الحاجة » إنما هو حال شاق للغاية ، وهذا يلفتنا لفتاً قوياً إلى أن صيغة التوتر ← خفض التوتر إنما تأخذ جانباً واحداً فقط من دورة « التغير الغذائى في الخلايا » (الميتابولزم) إذ تغطى عملية الهدم لا عملية البناء . حقاً أن مبدأ التوازن يصور الصيانة ، إلا أنه لا يمثل البناء وعملية البناء تتم لا شعورياً وغالباً أثناء الليل ، وينجلى نتاجها كل صباح في تجديدها للطاقات الجسمية والعقلية ، وتوترات الحاجة .

وعلى كل حال فإن النوم والتسلية ، والراحة ، والمقويات والفيتامينات وغيرها - هذه جميعاً طرائق لاسترداد التوترات الخاملة ، فجلي إذن أن التوترات يبحث عنها عمداً ، وهذا يقودنا إلى التسليم بصيغة أخرى أكثر شمولاً هي : توليد التوتر ← خفض التوتر . هذه الصيغة تمثل طريقة للحياة لاهدفاً لها ، إلا أنها تقتصر فقط على الأنظمة الإيجابية للحاجة وما عداها يخضع لسابقتها .

ولما كانت أنظمة الحاجة الإيجابية تنسل صوراً مكنونة بالمتاعب وأهدافاً قاصية ، فإن وظيفة من أهم وظائف الشخصية تنجلي وهي التنسيق الزمانى لدعامات أهداف اللازم نوالها لبلوغ المآرب ذاتها . وهذه المعارج المتسلسلة التي يتم تشريعها غضون الزمان تكون لونها من الترقى ، ففي مقبل العمر تزدهم الآمال ، ولكن كيفما كان الوشاح الذى يتشح به المآرب فلا يمكن بلوغه إلا عن طريق سلسلة ممتدة مترابطة من حلقات ، ويتعلم الإنسان مبادرة هذه الخطوات وبالتالي يصنع في قرارته معارج وتطلعات متسلسلة تختلف في مدى

التنامها ، كما تتباين في درجة وثامها مع الحقائق التي تصاكرها ، إذ أن بعضها مجرد أوهام . ويمكننا أن نقول كخاتم هنا ، أن تصور خفض التوتر يجب قطعاً عن كل الأسئلة التي تدور حول الحفز ، ويفسر لنا سببية فعل الشخص ، ولكنه لا يحل على وجه التمام معضلة : لماذا يفعل الشخص هذا وليس ذلك الفعل ؟ .

وظائف الشخصية :

(٢) الإفصاح الذاتي :

إذا أفسحنا قليلاً مبدأ « خفض التوتر » لضم ، تحت مضمون الحاجة للنشاط ، كل صور السلوك العشوائية ، والتلقائية ، والانفعالية ، وهذه جميعاً جلية في مرحلة الطفولة ، ولكنها أيضاً تتبدى خلال الحياة ، وخاصة آفات اللعب والارتقاء . وتتكون من انطلاقات خالية من الجهد للطاقات الكامنة ، وترافق كل وظيفة سيكلوجية ، وإذن يصح تسميتها « لذات كيفية » لتمييزها من النضال المشعب بالكد والمكثون بالألم نحو « لذة غائية » ، ففيها نتصور فقط نوعاً من الإطلاق للتوتر ، يكون مجرداً من المسؤولية ، عابثاً ملتذا لذاته .

هناك تصور يعوزه أيد ، تتأ عن صيغة المنبه ← الاستجابة ، تلك الصيغة الآلية المتحجرة دعمه الاستقلال والكفاية الذاتيين ، ذلك القصور هو أن الشخصية الإنسانية حاصل نمطى استجابى شامل وبالتالي يلزمه حفز لبث حيويته ، بدلا من تقرير الحركة الدائمة الدائبة للعمليات الوظيفية ، وعضواً عن عرفان « دماغ » يصطخب بأوهام وقواعد ، ومآرب وتوقعات ، ويصطرع بخوف ورهبة ، وهذه الفاعلية الحية تصطفي أو تحيد عن مواقع بيئية معينة ، وهذا القول من جانبنا لا يحدد وجود بعض القوم الذين يعيشون في حالة سلبية نسبياً ، كما لو كانوا في انتظار من يفتحهم سريرهم ويدكى انفعالهم الفاترة ، كما أنه لا ينكر قطعاً ، أن الشخصيات الإنسانية جميعاً ، بما فيها تلك الطاوية لأفكار متفاضلة ومتكاملة بدرجة سنية ، تستهدف ، بتباين ، لاقتحامات بيئية ملائمة أو منافرة والمطالبة باستجابات مباشرة . وأن تكامل الأرجاع ، وهو عادة لديمومة عاجلة ، والناجم عن مصاكرات كهذه نيمره ، يمكن تمييزه (٤)

عن التطلعات والمعارج الدافعة لمآرب قضية . فلبابه هنا ، أن الشخصية تصب
نفسها في قالب يترجم عنها ، فالحياة ، كما قال أحد الترجسيين بحق ، كالتوقيع
على كمان ، وعلى الهاوى أن تتمخض قريحته بلحن مقرون بمران .

وظائف الشخصية :

(٣) خفض الصراعات بالأنهاج التوقيتية :

بجانب هذه العمليات الوظيفية ، أى الإفصاحات الذاتية ، وخفض
التوترات النوعية ، تلتفى الشخصية متورطة دوماً في الجسم بين نزعات متباينة
متصارعة ، ففي غمرة حشد من الإمكانيات نجد الإنسان يسائل نفسه عما
يواظب عليه ، وعمن يصطفها شريكة الحياة ، وعن الغرض الأنجع وهلم جرأً ،
والتي يبرز أن أشدها ضغطاً ومصاكة هي الصراعات المستعرة بين نزوات
مختلفة ، ولقد انجلى لنا آنفاً أن هذه الأخيرة تستمد طاقاتها من حاجات ،
وهذه بدورها لها موضوعات وأمكنة هدفية ، وبالتالي يبدو استحسان التنويه
بالوان النزوعات الخاصة بالهدف في أمكنته وموضوعاته .

وتحسبك الشخصية «أنهاجا توقيتية» محققة جمعاً من نزوعات الواحد تلو
الآخر ، ولزام تمييز هذه عن المعارج الأنفة والمؤلفة من تلاحق لدعامات هدفية
حافزة لمآرب نائية ، في حين أن «النهج التوقيتي» تجزئ فترة من الزمان ،
كيوم أو شهر ، أو عام ، إلى تنال زمانى لأوجه نشاط متفاضلة (وغالبا ما
تندم صلتها) ، والمفضى إلى تشكيل سلوكى مهدئ لحاجات معاودة وبالتالي
إخمادها ، وخفض صراعات نزوعية وأخيراً نوال درجة من تناغم فاتزان .

بيد أن أغلب القوم تزجهم ملاساتهم الاجتماعية إلى «أنهاج توقيتية»
نسقها آخرون ، كذلك ، تفرض الثقافات ألواناً عامة أو خاصة منها للتحديد
الزمانى والمكانى والفعلى ، ومن ثم فصقلها مجال يحتمل أن يحدث فيه صراع
بين الفرد ومجتمعه ، تنجلي أماراته منذ باكورة الطفولة بين الطفل المريد الغذاء
كما يهوى وبين الأم الناهجة وفق تحدييدات الطبيب ، كذلك النهج بين
الطالب ومدرسته .

إذا ما عاش إنسان بالزمان الذاتى أو العضوى ، لا يفعل فعلا اللهم

إلا إذا استفزه دفع وحفز قويان ، إذن لدرى جلياً بكل حاجة كما تثور ، فالشعور بالوحدة يدفع إلى التفتيش عن نخل ، غير أن الملابس الحضرية المتشابكة تضطر الفرد للحياة طبق « نهج » محدد تحديداً زمنياً جامداً ، فنبه الطعام ليس الخواء المعدي بل « صفارة » المصنع . وبالتالي فإن بعض حاجاته تهدأ قبل انبعاثها أو قد يفرط إشباعها ، وتظل أخرى منتظرة أو يتم انزمامها ، ومن ثم فإنه قلما يكون واعياً بالوجود الحاجي ، كما يتم فقدانه التمتع بالخفض التوتري ، كذلك يتململ من « إحباط » حاجات أخرى ، على أن تخطيط سرعات توقيتية ذاتية وفاقية لا تهتك العلاقات الاجتماعية ، تعيين من أهمها في شخصية الإنسان وبالتالي تسكين حاجاته دون مصاكتها .

وظائف الشخصية :

(٤) خفض توترات التلهف :

لا يقدر إلا عدد نزر جداً من الناس على الإرضاء الحاجي إرضاء بليغاً ، ومرد ذلك الافتقار المادي ، وعجز القدرة (بالمعنى الذكاوي) والشوائب الخلقية ، والحوائل الاجتماعية ، والنقص البيئي وغيرها ، فيخفق القوم في تحقيق مطامعهم المادية ، كما يفشلون في حبهيم واصطفائهم الخلان ، أو قد تدور عليهم الدائرة الماحقة في هذا السباق الجنوني ، سباق القوة والعزة والسلطان ، وفي كل حدث من هذه ، تفضي جهودهم بهم إلى الحبوط ، والتلمل والامتعاض ، وحاصل هذا الدمار نلقى عدداً كبيراً منهم « يتعلمون » تخفيض مستوى تلهفهم وطموحهم ، أو يتعلمون قبول أهداف بديلة بغية تحقيق مآربهم في النهاية . والحق أننا إذا سلمنا بالفرض القائل بأن الشخصية الإنسانية تميل على وجه العموم ، إلى أن تنقد ذاتها من وجوه التلمل والتبرم وأن تعوق معاودتها ، فتكون عملية إنزال « التلهف » ، إذن ، إلى المستويات المحققة الفعلية ، إنما تكون عملية وظيفية .

هناك أسس مكين في الشخصية هو « الذات المثالية » أي تكامل عدد من الصور لطلاع الفرد في أبهى حله على سنار المستقبل النائي محققاً ما يبتغيه جميعاً ، بعبارة أدق ، هي مجموعة تطلعات فعارج متلاحقة متماسكة ، لكل مستوى

تلهدف يباين الآخر ، ومثاليات « الأنا » تخلق خلقاً تخيلياً ، ويعاد إبداعها في مجرى الترقى ، وفي الاستجابة النمطية البيئية ، كقذوات خرافية ، أو تاريخية أو عائشة حية وبالتالي « فالذات المثالية » نسق من تقمصات تخيلية لأبطال ممجدين فتقديسهم . وقياسها قد يبرز نتائج « موضوعية » لفحص الشخصية .

وظائف الشخصية :

(٥) خفض الصراعات بالتوافق الاجتماعى والتقمص :

هذه من أشقها وآلمها ، ونقصد بها تكيف الشخصية لتعبيراتها وحاجاتها ، وموضوعاتها فأمكنها الهدفية ، وشرعاتها التوقيتية ، وتطلعاتها الزمانية - تكيف كل أولئك مع الأنماط المدعمة اجتماعياً ، وقد يتم هذا بالتعلم ، إلا أن الطريق مكنوف بعقبة التسوية النمطية الفردية بالنمطية الاجتماعية .

تقرر مبدئياً أن النمط الثقافى وتسخيروه متباينان ، ودراسة هذه المقاسمة هى اللاحة بين الفرد المشخص والنمط المجرد ومن الناجع أن يفتش الباحث عن مدى مشاطرة الفرد فى الأنماط الاجتماعية وعن مدى « نبذه » إياها ، وذلك لأن هذا الشق الأخير أى النبذ ، إنما هو محل قديم فى فحص الشخصية ، فالمضاهاة الاجتماعية يثاب عليها ، وبالتالي فإن افتقادها يدفع الفاحص إلى التساؤل عن الأحداث « الاستشعارية » المقلقة له ، وإذا لم ينهج الإنسان الشرة الاجتماعية فى درك مآربه ، فسيلقاه التذمر أو صور الحرمان ، ومن ثم فدراسة المشاركة النمطية تربحنا دلائل قوية للأنظمة التعودية الشخصية التى تسم فرداً معيناً ، كما تعطينا مفتاحاً لنمذج صراعى معين كالمختم بين الآباء والمراهقين . الحق أن معضلة التوافق التبادلى فى الأنماط إنما هى معقدة وهامة فى الآن عينه ، وهى تنبع من أن مهمة « الثقافة » تقمع وتصد ، وفى الآن نفسه تصد وتعوق العدوانية التى جيشتها الصدمة الأولى ، والتعليقات العشوائية لأصحاب النظريات فى هذا المضمار ، يعوزها اعتبار « ترقيع » السلوك ، فهناك مجموعات ثقافية من الأنماط مرصوفة ، فإذا اعتبرت مجرد وحدات بنائية مؤلفة لأجزاء قابلة للانفصال ، إذن خلعت هذه الأنماط من التناقض المزعوم بعضدنا أن الأنماط المثالية الثقافية متوافقة لدرجة تجعل « ترقيع » السلوك

لا يفضى إلى التفكك الشخصى ، بيد أن هناك لوناً آخر من « الترقيع » يسود في المجتمعات الكبرى القائمة ، معرضاً الفرد لوجوه من الدلك والمصاكة ، كالتباين الملموس بين الأصقاع والطبقات بأنواعها إن أردنا مثلاً .

إن معنى « تنميط » السلوك ثقافياً يضم الاقتصاد الطاقى ، وجانباً وجدانياً إيجابياً . فيمس الفرد . فى موقف ، أنه « يعرف » أى الأنماط يضاهاى سلوكه ، كما يحس بطمأنينة فى القيام به . ولما كان النزوع النمطى الثقافى يلزمه الخفاء والالتباس ، فيكفينا القول بأنه برغم أن بعض الأنماط الثقافية ، وخاصة الجمالية منها ، توجب تبدلات دورية يملها الترقى . ففى أغلب الأحيان نلقى الاستعمال المديد هو الذى يقدها ، وعلى أية حال ، فالآباء وكل المسئولين اجتماعياً ، هم الذين « نتوقع » منهم تدعيم وتعليم الأنماط التقليدية بالإقناع وضرب الأمثال ثم بنظام ثقافى محدد مقرر اجتماعياً ومؤلف من الوان : الثواب والعقاب . وتسمى عملية صقل وتعلم هذه الأنماط إلى أن تصير « طبيعة ثانية » « بعملية الاستشعار » .

يصطدم الطفل بأوامر نهى عن أشياء محببة إليه ، وأخرى فعل أشياء كريمة له ، ولكنه يريد تجنب العقاب وإحراز « آلاء » الآخرين ، وبالتالي يلزمه تعلم « كف » مؤقتاً أو دواماً ، ودافع لحوجه ، وزج نفسه فى أفعال أخرى منفرة لوجدانه ، وبعد أن يزيد الطفل ويحتج كثيراً ، فإنه يتعلم أخيراً التوافق النمطى المقرر بالآخرين . وترتبط قدرة « القمع » هذه بصور العقاب من الآباء أو من أئداده ، التى تذكى القلق لدرجة آلم من « توتر الحفز » وبالتالي ينساق الطفل إلى خفض الأول أكثر من الثانى . وفى صيغة التعلم التقليدية التى هى : وسائل أثر نجد أن المسألة حل صراعات طفيفة ، فى حين أنه فى « التعلم الخلقى » يلزم « القمع » لا مجرد « التسكين » . ويندرج تحت لفظتى « الثواب والعقاب » كل وجوه الرضى والامتعاى التى يسببها الآخرون فى الكائن الإنسانى ، فيهم الطفل كونه موضع حب الأم ومن ثم إحراز اعترافاتها ، والحفز المطوح بهذه أو الجالب لعدوان الأم ، سيلتحم حتماً بإحدى النتائج المورطة للقلق . كذلك النهج مع الأب وذوى الدلالة للطفل . وقد تكون الجزاءات ميثافيزيقية كالسعادة والشقاوة الآخرين ، وقد تستند إلى عامة المجتمع ، أى الوعيد لسخريته . وهذا فى المجتمعات غير المتحضرة .

وفى مجرى الترقى ، فإن ألوان السلطة المقنطرة على الإثابة والتنكيل ، الآباء ، الله جل شأنه ، القدرات الرفيعة ، والمرتبطة بالقوانين والتقاليد - تقوم فى الشخصية كركن هام يسمى « الأنا الأعلى » الممثل لواحد أو أكثر مما يلى :

صوت الله ، قوانين السلوك السرمدية ، الحق ، أوامر المجتمع ، إرادة الجميع ، أو مجرد التقاليد الثقافية ، ولما كان « الأنا الأعلى » دعم بموقف انفعالى مزوج بالخوف والإجلال والحب ، وإذن فالفرد يسمى من حملة الثقافة الاجتماعية النقاة إذا ما كف كثيراً من إندفاعاته الجانحة خشية جزاءات خارجية وتجهم الأنا الأعلى . تلك هى صورة العالم الإسلامى والمسيحى واليهودى وفى مجتمعات أخرى نجد فكرة « الحجل » أى عدم التوافق مع الآخرين ، هى الدافعة للكف .

ويترقى فى الطفل ، فى الثقافات جميعاً ، وكصدر متمم للحفز نحو السلوك الخير - رهبة تطويح الاحترام الذاتى مرتبطة برغبة إيجابية فى صلاح خلقى ، ويواصل هذا طوال الاحترام الوالدى له ، وارتباط كبريائه بعضويته العائلية ، وقدراته الجدد ، وأن عدم توقيع عقاب مهشم للعزة ، وإذا لم يكن كذلك ، فقد يضر الطفل الغل العاطفى والذحل فى اتجاهه الوجدانى ، أو قد ينزلق فى حياة إجرامية تدميرية ، فتلك نتيجة الاستشعار الجزئى العميم فى المجتمعات .

وأن درجة « الاستشعار » لا يمكن تقديرها بالانكاء على « البينة الذاتية » فإن المزاولة المداومة للقمع المتطلبية بالمجتمع قد تكون ممارسة مؤلمة إبلاماً بليغاً ، وحاصل هذا ذحل متراكم متأصل صوب التعيينات الثقافية شعورياً أم لا شعورياً .

ويترجم هذا الغل عن نفسه فى التورات والتبرم وآنات الاكتتاب والتشاؤم والفظاظة ، وإذا ما طفح ظهرت ألوان العصاب والذهان . ومن ثم فالكبت الصارم للغل يدل على « لا توافق انفعالى » وبالتالي يشير إلى الإخفاق الجزئى لعملية « الاستشعار » بغض النظر عن مدى نجاح الفرد فى « اقتناص خلان والتأثير فى الآخرين » فأرب عملية الاستشعار إذن هو تقمص انفعالى لنفسية الشعب المترتبة برغم وجود صراعات شخصية إذ هذا لا يحيص عنه .

إن الإفراط التوافقى يقود إلى شحنة ذحلية وبالتالي إلى إنماء فى تناحر الانفعالية ، إن الأمر كما لو كانت كراهية الفرد للمجتمع تنبع من كل نبد متضمن فى عملية « التوافق » وفى هذه الحالات يمكننا القول بأن كل عملية

وظيفية تؤدي إلى ميل الوفاق مع المستويات الاجتماعية ومن ثم إلى خفض التنافر الانفعالي ، فالتاريخ ، كالتجربة اليومية ، كلاهما يدلنا على أن الأنماط اللامقبولة التي أفصح عنها الفرد أو رغب في ذلك ، قد تبدلت إلى أخرى أكثر وظيفية وأكثر توصيلاً للبهجة الاجتماعية والفردية ، بدرجة أعلى من الأنماط التي دعمها المجتمع وبالتالي لزم اعتبار صلاحية الثقافة للترقي الفردي في الفحص الشخصي . إن بعض الأنماط الثقافية باق ، وبعضها متبدل ، وأخرى بانية لقيم اجتماعية جديدة ، ورابعة محافظة على العتيق ، وأخرى مبدعة خالقة ، فالإنسان المتقمص ثقافته برمتها هو الممثل لهذه الاتجاهات المتباينة ، بيد أنه يستحيل تحقق ذلك في شخصية فريدة ، نعم قد يكون أغلب القوم « حملة الثقافة » أي محافظين عليها إلا أن هناك أيضاً مبدعيها ، كما أن هناك فاصمى عراها ، ومن ثم يمكننا القول الآن ، إن هون عملية الاستشعار ، على نحو وظيفي مديد ، هو الميل والقدرة جميعاً على التبادل والتعاون مع أعضاء المجتمع المحافظين لأنفس أنماطه ، وأيضاً مع أولئك الجاهدين لترقيتها ، ولا ريب أن الطريق لهذا الهدف موسوم بصراعات مستقرة بين الفرد والمجتمع ، وبرغم أن بعضهم يتوقف في الطريق ، إلا أن السيكلوجي له ما يبرر افتراضه أن إحدى وظائف الشخصية هي توجيه ذاتها صوب التقمص والاندماج الكلي في كلتا القوتين : « القوة المحافظة » و « القوة المبدعة » .

إن الشخصية الإنسانية هي تأليف وثامى ، أى حاصل ديناميكي لصراع بين حوافز الفرد نفسه ، وبين مطالب واهتمامات وحوافز الآخرين ، ويتم هذا الوثام بطرائق متشعبة ، فقد يزداد الفرد في استشعاره أى تمثيله الاجتماعى ، في ناحية من سلوكه ، وأخرى يكون فيها ليناً ، ورابعة يستشعر فيه جزئياً ، والصراعات المثارة بالمطالب العديدة المترابطة حول الشخصية قد تجد حلاً في « التثويب » أى اتخاذ تدابير معينة في مجال معين لا تستخدم في آخر ، وتساهم التبريرات في هذا الإخماد أيضاً . وقد يصحب التوافق عداوة صريحة صوب الأنظمة أو تحريف التقاليد ، نقول في كلمة إنه في الأرجح الوجدانية المرافقة لتعلم الأنماط الثقافية ثم تحويلها إلى أخرى ، المنابع الدافعة للتغيير الثقافي .

وتقوم أشكال الشخصية المختلفة نتيجة لديناميات عديدة متبادلة التفاعل .

ولكن ندون هنا وصفاً بسيطاً . فنقول إنه إذا ما ظلت الدوافع البيولوجية حرة لا يصددها عائق في إنسان ، فإنه يعرف بأنه : لا اجتماعي ، مجرم ، طوع الهى ، وإذا ما كان دافع الحياة في فرد قلما « تكيف » ولديه رغبة ملحة للإتكاء على رضى الآخرين ، فإنه يعرف بأنه : عصابى ، عاطل من الشعور ، طوع الأنا الأعلى ، وإذا ما برز ثالث ، نتيجة تكامل بين الحاجات البيولوجية والمطالب الثقافية ، يمثل النموذج المترن فنوسمه بأنه : سوى ، منطقي ، طوع الأنا . وقد تمثل هذه الأفراد الثلاثة : ما تحت الاستشعارى وما فوق الاستشعارى ، والاستشعارى ، النزعات المركزية ، إلا أنه تصنيف منقوض إذ لا ينفسح «للذهانين» فالأفراد الممنونين « بالذهان الوظيفي » ينحصرون في أولئك الذين كان استشعارهم من الصرامة والقلق لدرجة أن ارجاعهم هي نبت وطرح الأهداف الثقافية . ولا ريب أن البناء الثقافى الكلى أو ألوان الضغط والمصاكة تذكى معاودة الاختلال ، ولكن الأفراد الذين اشعروا بمرتبة أدون من الضيق والحصر ، لا يقبلون انفعالياً ، تعريف أنفسهم كما تراه الثقافة ، وقد يحتمل أن يكونوا مستقبلاً « مبدعة » أو « معتزلة » وتذكوا الشخصيات المبدعة حالما تفضى العملية الاستشعارية إلى « تحريم » أهداف فردية مع اعتبار أن هذا اللون من الشخصية ينمو في العائلات الممتازة اجتماعياً واقتصادياً . في حين أن كثيراً من العمالين محافظون . ولقد أوضح Barnett في كتابه « الصراعات الشخصية والتبدل الثقافى » أن الصراع الشخصى ، حتى في المجتمع المتجانس غير المتحضر ، هو الحفز الأولى للإبداع . كما أبان كيف أن « الأشخاص الساخطين واللامتوافقين والمحبطين والمبلبلين هم طليعة المرتضين الإبداع الثقافى والتبدل » ، وعند ما تُشحن الأهداف والوسائل شحنة قوية من القلق ، أو تنبذ ، فإن نموذج التوافق يوسم « بالاعتزال » ولشقة العبور من وجود لا اجتماعى إلى آخر اجتماعى ، نجد رأياً عميقاً بأن الإنسان ، بالفطرة ، جعبة الأشرار وأنه كلما أمكنه صد هذه « الدناسة الجبلية » والإذعان لطرائق المجتمع ، كان ذلك أنجع له ، وبالتالي حق للمجتمع قمع « الاهتمام الذاتى » في الفرد مصيراً إياه قابلاً « للتضحية والخدمة » . فالشخص الوسيط هو الشخص الذى اعتدلت فيه العملية الاستشعارية ولكننا نجد أن الإبداع المركب للمجتمع كذا الإبداعات الفنية والعقلية . هذه جميعاً قلما تنبع من مثل هذا النموذج من الإنسان .

نقول في كلمة إنه مهما تكن الكائنات الإنسانية ، أو ما يمكن أن تصير إليه ، إلا أنها في جوهرها «حيوانات» ويجب أن تظل كذلك ، وهذه الحقيقة التي لا مرد لها تقيم حدوداً معينة لمدى قمع الحاجات والنزعات البيولوجية ، وبالتالي يعود النفع عموماً إن للفرد وإن للمجتمع .

رابعا - أركان أخرى في الشخصية :

يتميز عن التحليل والتركيب الديناميكيين المنسقين الأفعال الآجلة ، التحليل والتركيب الهيئيان الميزان للهيئات المتسلطة ، وتعتمد المتغيرات الهيئية على التغيرات الديناميكية والعكس صحيح ، وتحدد الأولى العلاقات المتبادلة للعمليات السائدة الفاعلة في كل حدث (كالإدراك والوجدان والنزوع) وتمثل الثانية نوع الموقف الذي ندرکه وكيفية تفهمه وتقديره ، والتوافق معه وهلم جرا ، ومن ثم فإن التحليل الديناميكي يعالج مكونات الشخصية ، مثل حقائق معينة تذكرت ، مقاصد ، انفعالات وحاجات خاصة ، وهذه لا تكون فاعلة دوماً فيما يسود الإنسان ، ولكنها تطوى في مؤسسات الشخصية بالقوة أو منابعها الكامنة ، وكل منها يحفره حادث أو منه معين .

ويقتضى التحليل الهيئي ملاحظة سرعة النشاط اللفظي والحركة وتماسكه ومطابقته الواقعية ، كما يستلزم ملاحظة التسلط والتغاير النسيين في العمليات السيكلوجية المختلفة ، وإلى جانب هذه المتغيرات فإنه يتضمن كفيات مثل : الديمومة النموذجية للوحدة الوظيفية (إلحاح الاتجاهات) ، درجة انقراط أنواع النزوع ، التناغم والالتحام بين الوحدات المتلاحقة المتسلسلة ، نسبة الذاتية والحدة في الوحدات ، مرونة أو صلابة الأنماط ، نسبة الوحدات الجوانية (العقلية) إلى الوحدات البرانية (الاجتماعية) ، نسبة الفعل المغرض المصوب نحو تحرير الحركات العشوائية والمتجددة (الذات الحسية ، الإهجان ، الممارسة المتخبطة) ثم أخيراً درجة التوافق مع الأنماط الثقافية ، وبعض هذه الكفيات يستند إلى متغيرات مثل : مستوى الطاقة ، المزاج ، توازن الذاتية والموضوعية ، توازن الانطوائية والانبساطية ، الذكاء العام ، وأغلب هذه الأخيرة ، رغم تبدلها بالتأثيرات البيئية ، إلا أنها محددة تحديداً تكوينياً بنائياً .

إن اعتبار العمليات السيكلوجية المختلفة وخواصها ، يلزم ربطه بالمحاولات

التي عملت لتصوير نظام «الأنا» المتفاضل ، والمؤلف من الأهداف والخطط المقررة والمعقولة المنطقية ، ومن القيم والمستويات الشعورية ، ومن الأفكار والنظريات الممكن استرجاعها ، والمتمايز عن «المهى» منبع الحاجات ، والانفعالات ، اللامقبولة فى بعضها وبالتالى يجرى «الكف» عليها ، ومصدر عدد نيمر أولاً يحصى من صور وأفكار مبهجة ، والتي برغم كتبها إلا أنها تنفخ فى تحنها بطريق معوج ولا شعورى .

ثم إن تصور الشخصية يجب أن يشير إلى الترقيات التى تتم والتي فى معظمها ، يمكن سميها بأنها : تفاضل وتكامل فالأول يضم كل التميزات فى الإدراك والتأويل والتصور ويحوى التخصيصات المتشعبة فى الأفكار واتجاهات وتوقيت الفعل . والتفاضل العقلى يتفهم الاختلافات ويضم عملية التحليل العقلية وتكميل أنظمة الفعل الحاطئة والقدرات يدوية كانت أم لفظية ؛ أما الثانى ، أى التكامل ، فإنه يحوى القدرة على إدراك التشابهات والاختلافات بين الموضوعات والأحداث ، ويشمل القدرة على ترقى نهج تصورى ملتم ، وقدرة حل الصراعات ، وتعقل القيم وإبداع فلسفة للحياة ، والقدرة على تسوية الخطط والتفكير والكلام بكيفية منطقية . ثم أخيراً القدرة على حيك أنظمة ديناميكية فى كل موحد تام الحلقات .

كذلك لزام أن يحوى وصف الشخصية سجلاً لآثارها النموذجية على كرام الأعوام ، أى نجاحها وفشلها الجوهريين فى محاولاتها نوال الأهداف القاصية ، ومؤسساتها التى خلقتها ، على أن الآثار التى تتمخض عنها الشخصية الإنسانية ليست هى الشخصية ذاتها بل نواتجها ، وعندنا أن صيغة الشخصية التى تنحى هذه ، إنما تكون صيغة مبتورة منقوصة .

خامساً - تحديد الهيكل العام :

تعمل الشخصية لخفض الامتعاض ، كذلك تفعل لتوسيع أفق «البهجة» ويمكن أن يرتبط ، بطريق بسيط ، توتر الحاجة بالامتعاض ، كذلك يمكن أن ترتبط الحالة اللانوتورية بالرضى . هذا الوضع فى حالة بعض التوترات كالخوف والغضب والقلق والكآبة ، ولكن فى حالة توترات أخرى ، كالجوع ، الجنس ، الوجدان ، الفضول ، التلهف ، فإن التعلق يكون معقداً لا بسيطاً ،

لأن الامتعاض الدعوى تكسحه عادة تيارات الرضى المرتبطة « بتوقع » الهدئة . وليست الحالة اللاوتورية هي المبهجة للكائن ، بل إن عملية خفض التوتر هي المحققة لذلك . ويبدو أن أعظم بهجة أو رضى يرافق خفض التام لأكبر كمية من التوتر .

إن الشعور بالرضى في الكائنات الإنسانية يحدده التوقع الشعورى أو اللاشعورى ، أكثر مما تحدده الملابس القائمة . وبالتالي نقول إن إطلاق التوتر ، ثم توقع أنواعه ، إنما هي منابع فياضة للرضى الإنسانى . فإذا ما كانت توقعات الهدئة حية محددة ، فإن الامتعاض الطفيف المرتبط بتوتر الحاجة يكون غير مشعور به كلية . وبالتجربة يتعلم عدد كبير من القوم أن توقعات سنية ، رغم أنها مهمة في ذاتها ، فإنها توظف أيضاً توترات لا تخدم إخماداً تاماً ومن ثم يخفق حاصلها . ونتيجة هذا فإن كثيراً من « المتوقعين » يخفضون توقعاتهم بعد أمد ، ومن ثم ينجون أنفسهم من امتعضات مرتبطة بتوترات لا مرد لها .

إن صيغة : التوتر ← خفض التوتر لا يمكن استخدامها على نحو مبسط في سلوك الكائنات الإنسانية وذلك لأن كل فرد في المجتمع يتعلم أنه إذا ما أذعن لكل حفز يثور فإنه يستهدف للعقاب أو تفلت منه أهداف مشوده ، وبتوافقه مع هذه التوقعات فيتعلم تدريجياً تنظيم كثير من أوجه نشاطه وفق تطلعات وأنهاج توقيتية ، ثم لزوم هذه الأخيرة يفضى إلى طريقة رتيبة يكون أثرها فعالاً في بناء الشخصية الإنسانية ، وبالتالي نقول إن وظيفة الشخصية التى فوق كل ما سواها ، هى إذن إبداع تخطيط يسمح بالإخماد الدورى المتناغم لأغلب حاجياتها ، كما أنه يدفع إلى نجاح تدريجى لمارب قصية مطلية على ستر المستقبل اللامع وفي أرفع مستوى من مستويات التكامل يكون هذا التخطيط مكافئاً لما يسمى « فلسفة الحياة » .

إن الشخصية الإنسانية هى تواصل قوى وظيفية وهيئات تعجلى في تنابع وتقال لعمليات متسلطة منظمة الدماغ مجالها من المهدي إلى اللحد ، فوظائف الشخصية إذن هى : السماح بتجديد دورى للطاقات عن طريق النوم ، ثم ممارسة عملياتها ، ثم الإفصاح عن مشاعرها وتقويماتها ، ثم خفض توترات الحاجة المتلاحقة ، ثم تخطيط معارج وتطلعات لنوال أهداف نائية في كنف المستقبل ،

ثم خفض الصراعات المستعرة بين الحاجات عبر شرعات توقيتية مؤدية لسبيل متنام في الحياة ، ثم تنمية ذاتها من توترات لاراد لها عن طريق حصر عددها وإنزال المستويات المرغوب نوالها ، ثم أخيراً ، خفض الصراعات الحامية بين الميول الشخصية وبين الجزاءات الاجتماعية والصراعات التي بين أهواء الخوافز الاجتماعية . وبين إملئات « الأنا الأعلى » وذلك عن طريق تركيبات وثامية اتجاهها صوب اندماج انفعالى كلى فى قوى المجتمع المبدعة والمحافظة . ثم إن فهم الشخصية يستلزم تتبع ترقبها فى الزمان ودراسة عمليات التفاضل والتكامل ومعرفة ما فاض عنها من خصوصية ، هذه جميعاً متلاحمة متماسكة فى الشخصية المتكاملة كما يضم عقد واحد مختلف الجواهر الكريمة ، أو كما تهاسك أنغام نغمة لقطعة موسيقية واحدة .

حسنى المرسى غنيم